صورة

طويل[1] القامة ، يرتفع فى الجو مترين ، ثقيل الحجم ، يزن قنطارين ، صلب العظم ، قوى العضل ، مهيّأ بهذا كله فيما تقول بعض الصحف الإنجليزية للقاء المعضلات ، واجتياز العقبات وتذليل المصاعب والخروج من الخطوب . وهو على هذا كله ولهذا كله رزين ، راجح الحلم ، بعيد النظر ، ثاقب البصيرة . لا يحب الترف ولا يكلف بمظاهره ، ولكنه يحب العمل ، وينفق فيه جهدا عظيما . ويحتاج إلى فرق مختلفة من الأعوان ، يلى بعضها بعضا فى العمل معه فى الليل والنهار ، لأن فرقة واحدة لا تستطيع أن تثبت لنشاطه العظيم وصبره على الجهد الثقيل . وهو إلى ذلك كله فيما تزعم بعض الصحف الإنجليزية أيضا ، مشغوف بصيد السمك ، لا يحب صيد الطير التى تسبح فى الهواء ، ولا الحيوان الذى يجرى على الأرض . فإذا استطعت أن تلائم بين هذا كله ملاءمة حسنة فقد وعيت الصورة التى أذاعتها الصحف الإنجليزية للمندوب السامى الجديد الذى اختارته الحكومة البريطانية لخلافة السير برسى لورين . وأنت تستطيع من غير شك أن تلائم بين هذه الصورة التى لا تخلو من قوة وطرافة ،

---

(١) ٢٠ - ٨ - ١٩٣٣

وبين ما تنتظر أو ما تريد أن يأتيه المندوب السامى الجديد من العمل السياسي فى مصر . والخيال بطبعه حر مطلق يذهب كما يشاء ، ويلائم بين الأشياء كما يحب ويهوى ، وينتظر من الأشياء ما يحب ويهوى ، ولكن حرية الخيال هذه لا تلزم طبيعة الأشياء ولا تغيرها ولا تمس الحقائق الواقعة بتحويل ولا تبديل . فمهما يكن المندوب السامى الجديد طويلا أو قصيرا ، ومهما يكن ثقيل الوزن أو خفيفه ، ومهما يكن صلب العظم أو رخصه ، قوى العضل أو ضعيفه . ومهما يكن مترفا أو مؤثرا للشظف ، فهو لن يستطيع أن يغير الحقائق المصرية الواقعة التى سيلقاها حين يصل إلى هذه البلاد بعد أسبوع أو بعد شهر أو بعد أشهر . والتى لا بد من أن يكون قد علم بكثير منها ، وسيتم العلم بها منذ الآن قبل أن يأخذ طريقه إلى هذه البلاد .

وأظهر هذه الحقائق المصرية الواقعة وأجلاها وأشدها لذلك تعرضا للإنكار والجحود ، هو أن فى مصر شعبا يريد أن يستقل ، ويريد أن يعيش حرا ، وأن هناك قوى تأبى عليه هذا الاستقلال ، وتعترض سبيله إلى هذه الحرية ، وأنه قد ثبت لهذه القوى ثباتا قويا رائعا ، لم يضطرب فيه ولم يتحول عنه ، ولم تستطع المحن على اتصالها وإسرافها فى الشدة أن تنال منه و تصرفه عن إيثاره لهذا الثبات ولعلها كلما اتصلت وقست زادته حبا فى الثبات وإيثارا للصبر ، واستعذابا للألم واستبسالا فى الجهاد .

وقد جرب الإنجليز مندوبين سامين كثيرين ، كلفوهم مقاومة هذا الشعب وأخذه بالشدة العنيفة حينا ، وباللين المغرى حينا آخر ،

وكان بين هؤلاء المندوبين الطويل والقصير ، وكان بينهم الخفيف والثقيل وكان بينهم المترف الرقيق والغليظ الخشن ، وكان بينهم من يؤثر العنف ويغلو فيه ، ومن يؤثر الهدوء ويتكلف التزيد منه . وكلهم رجع إلى الذين أرسلوه بنتيجة واحدة ، لم يغيرها القصر والطول ، ولم يؤثر فيها الثقل والخفة ، ولا الغلظة ولا الرقة . وهى أن هذا الشعب يريد أن يستقل ، وأن يعيش حرا ، وألا تكون الصلة بينه وبين غيره من الشعوب الا صلة الشعب الكريم بالشعب الكريم ،وألّا تكون الصلة بينه وبين الحكومة القائمة فيه إلا صلة الشعب السيد بالحكومة التى تؤجر على أن ترعى مصالحه وتحقق منافعه كما يريد هو ، لا كما تريد هى ، ولا كما يريد الذين يوحون إليها ويحاولون تسييرها ذات اليمين وذات الشمال .

وقد جرب الطوال والقصار ، والخفاف والثقال من المندوبين السامين مع هذا الشعب ، ضروبا من السياسة وفنونا من المكر فمنهم من اشتد وقسا حتى تورط فى الإثم وسفكت فى ظله الدماء ، ومنهم من هان ولان حتى خيل إلى الناس أنه العسل الماذى كما يقول القدماء . ولكن عنف العنيف لم يخف هذا الشعب ، ولم يصرفه عن حقه ، ولِين الليّن لم يخدع هذا الشعب ولم يلهه عن حقه ، إنما ثبت الشعب للرجلين جميعا أو للرجال جميعا . ومضى الشعب يطالب باستقلاله ، لا يضعف عن المطالبة ، ويلح فى حريته لا يفتر عن الإلحاح ، ويلقى عنف العنيف ولين الليّن بابتسام الثغور ، وهز الرءوس ، ورفع الأكتاف وألوان من المزاح قد لا يفهمها الإنجليز ،

ولا يقدرون لذعها ومرارتها ، ولكنها مظهر صادق لشعب صادق فيما يطلب وما يريد .

فليلق المندوب الجديد بصورته الرائعه هذا الشعب الرائع ، فقد يتفقان والاتفاق يسير ، وقد يختلفان والاختلاف يسير أيضا ، ولكن نتيجة الوفاق سلم وأمن للإنجليز والمصريين والشرقيين جميعا . ونتيجة الخلاف ما نحن فيه الآن مما يتكلف الإنجليز إظهار الاستخفاف به ، والإعراض عنه ، ولكنهم حين يتحدثون إلى أنفسهم ويخلون إلى ضمائرهم ويواجهون مشاكلهم فى هذه الخلوة شجى فى الحلوق ، وأذى فى الصدور ، يودون حريصين لو وجدوا إلى التخلص منها سبيلا .

الاتفاق يسير إذا اعترف المندوب السامى الجديد أمام الناس بما يعترف به أمام نفسه من أن الشعب المصرى لم يبق من هذه الشعوب التى تساس سياسة الأطفال فتخدع بالمنى وتعلل بالآمال ، ثم يضمر لها السوء ويمكر بها من وراء حجاب . وإنما هو شعب لا يريد أن يسوسه أحد إلا نفسه ، ولا يقبل من الذين يتصلون به أن تقوم الصلة بينه وبينهم إلا على الصراحة والجراءة والاعتراف بالحق والاتفاق عليه

والاختلاف يسير إن مضى المندوب السامى الجديد فى طريق المندوبين التى سلكوها من قبله . وآمن فيما بينه وبين نفسه بأن هذا الشعب خليق أن يستقل ويعيش حرا ، ثم أبى أن يعترف بهذه الحقيقة أمام الناس ودار حول هذا الشعب يحاول أن يخيفه مرة ، وأن يلهيه

مرة أخرى ، وخيل إلى نفسه أن سيبلغ بهذا الدوران ما لم يبلغه غيره من الذين سبقوه .

كلا الأمرين يسير ، وكلا الأمرين له نتائجه الظاهرة الواضحة ، وكلا الأمرين لا يغنى فيه القصر والطول ، ولا الخفة والثقل ، ولا إيثار الصيد فى الماء مهما يكن على الصيد فى الأرض والهواء . وإنما يغنى فيه الصدق ويغنى فيه النصح للإنجليز والنصح للمصريين ، والنصح للعالم أيضا . فقد طالما شقى العالم باعتداء الإنجليز على المصريين .

وقد زعموا أن المندوب السامى الجديد وفق إلى الفوز فى كل ما تولى من المناصب ، فليهنه هذا التوفيق ، ولكن التوفيق فى الصين واليابان وسيبريا غير التوفيق فى مصر . فقد وفق المندوبون السامون الذين سبقوه إلى الفوز فى مناصب كثيرة اختلفوا عليها . وفى أعمال كثيرة نهضوا بها ، ولكنهم أخفقوا فى مصر ، لأنهم سلكوا طريق الأثرة وغلوا فى سلوكها ، فلم يظفروا من المصريين بشىء إلا أن أحفظوهم وزادوا ما بين مصر وانجلترا من الخصومة شدة وحدة ، وكادوا يقطعون على حسن الصلة ما بين البلدين كل سبيل

وهنالك حقيقة واقعة أخرى قريبة ملموسة ، لا تحتاج إلى النظر فى الكتب ولا قراءة التاريخ لتظهر واضحة جلية ، وهى أن السير برسى لورين لم ينقل من مصر لأن الحكومة البريطانية قد آثرته بالخير ، وكافأته على ما أدرك من فوز ، وإنما نقل لأن الحكومة البريطانية قد أشفقت من هذا الخذلان الذى قدر لسياسته الغامضة الملتوية ،

واستيأست من أن تؤدى هذه السياسة بغموضها والتوائها ومخالفة سرها لجهرها ، وظاهرها لباطنها إلى خير ما . فلعل المندوب السامى الجديد أن يرى هذه الحقيقة الواقعة وأن يقدرها ، ولعله إن رآها ورأى آثارها البشعة السيئة أن يشفق من التورط فيها . وهو إن لم يفعل فسيصير أمره إلى ما صار إليه أمر صاحبه من قبل ، لا سبيل إلى الشك فى ذلك ، ولا سبيل إلى الجدال .

إن الذين يظنون أن الشعب المصرى يعقد الآمال بهذا المندوب السامى أو ذلك يخطئون كل الخطأ ، فإن الشعب المصرى لا يعقد الأمل إلا بنفسه وحقه وقوته فى المطالبة بهذا الحق والثبات عليه . إنما يعقد الأمل بهذا المندوب أو ذلك من لا يؤمن بنفسه ولا بحقه ولا يجد من أمته سندا يعتمد عليه ، وإنما ينتظر الخير من غير مصدره الصحيح ، ويبتغى الحكم من تأييد الأجنبى . هؤلاء يحيون بذهاب مندوب وإقبال مندوب . أما الشعب فإنما يحيا بنفسه ولنفسه واثقا بأن مصير الأمر إليه على كل حال .